الفصل الثالث

الثقافة في الخليج

الثقافة في الخليج

من المسلم بـه أن الثقـافة ـ في أي مجتمع ـ هي ثمرة تفاعلات هذا المجتمع، مع نفسـه ومع البيئة المحيطـة به، وقـد سبق الحديث في النبذة التي قـدمت عن الخليج أن قلنا إن هذا الخليج يقع قي مكـان متميز؛ حيث تطل دوله على البحر العـربي الـذي هو جـزء من المحيط الهنـدي، ومن نـاحية أخـرى على البحـر الأحمر.

ولهذا الواقع ميزات، تتعلق بميدان الثقافة، لعلنا نمر عليها سويًّا مرًّا سريعًا حتى نـرجع الأمـور إلى جذورهـا التـاريخية والجغـرافيـة، أو إذا أردنـا الدقـة.. الجغرافيـة والتاريخية، حيث الجغـرافيا أسبق من التاريخ، إذ هي مسرحـه الذي يسبق أحداثه ويمهد لها.

أولاً :

يتـوسط هـذا الموقع قـارات بأكملهـا، ففي الشرق نجـد آسيـا بضخـامتهـا وامتدادهـا، وتنوع منـاخاتها، وفي الشمال نجد أوروبـا بتعقيداتها التضـاريسية وامتدادهـا من البحر المتـوسط جنوبـاً حتى المحيط المتجمـد شمالاً، وفي الغرب أفـريقيا بكتلتهـا المتماسكة، أو المنـدمجة ولـونها الأسمر، وخط استـوائها الـذي يقسمها إلى نصفين متقاربين أو يكاد.

ثانياً :

البحر جزء أساسي في تركيب دول سكان الخليج، حيث يتعمق الخليج نفسه داخلا من البحر العربي (المحيط الهندي) في ذلك الركن من جنوب غرب آسيا، وحيث يطل جنوب الجزيرة منفسحًا على البحر العربي، بينما يطل غرب الجزيرة ممتدًا على البحر الأحمر.

ثالثاً :

من سمات سكـان المناطق البحـرية، أي التي تطل على بحـار مفتوحـة، أو تقترب منها أنهم لديهم فرص واسعة للتعـامل والاحتكاك مع شعوب بلاد أخرى يكون البحر رابطا بينهما . . أي بين المجموعتين، وهذا الاحتكاك وذلك التعامل يتيح فرصا واسعة لمعرفة الآخـرين ودراسة أحوالهم، وكذا للاستفادة من خبراتهم وتجاربهم .

رابعاً :

من حظ الخليج وأهله أن هذه البلاد التي ربطهـا البحر بها كانت في معظمها منـاطق حضـارات قـديمة راسخـة، ففي أقصى الشرق كـانت حضـارة الصين العـريقـة التي نشـأت حـول مجاري الأنهار الكبرى في الصين مثل اليـانجتسي والسيكيانج، وفي الـوسط بينهما ـ أي بين الصين والخليج ـ كانت حضـارة الهند التي أسست حـول مجاري الأنهار هنـاك أيضـا، مثل نهر البراهما والجانجـز والإنـدس، وفي غـرب الجزيرة العـربيـة كـان الاحتكـاك مع إفريقيـا بحضـارة المصريين العريقة حول نهر النيل، وحضارات وسط أفريقيا .

خامساً :

كانـت الصلة بين منطقة الخليـج ومناطق هـذه الحضارات وسيلتهـا التجارة التي برع فيهـا أهل المنطقة، والتي من أجلها صنعـوا السفن والمراكب والقوارب المختلفة، وكـانوا يقومـون بنقل التجارة بين تلك المنـاطق وبعضها البعض، كما كانت تصل إلى منطقتهم سفن الآخـرين وقواربهم، وكـانوا يفرغـونها في موانيهم ويقومون بنقلها على ظهـور الجمال إلى المدن الكبرى داخل الجزيرة العربية أو على حـدودهـا، ومع التجـارة وصلت إليهم الأفكـار والمعلـومـات من منـابع تلك الحضارات فتأثروا بها، كما أثروا هم ـ بدورهم ـ في الآخرين .

سادساً :

حينما رزقهم الله ثروة البترول انفتحوا على العالم وانفتح العالم عليهم بشكل لم يسبق في حياتهم، فقد جاءتهم شركات البترول العملاقة للبحث والتنقيب والاستخراج والتكرير والتصدير، كما جاءتهم شركات ضخمة لتنفيذ مشروعات التنمية التي تبنوها متوسعين، كذلك فإنهم استوردوا العمالة الأجنبية من كل صنف ومن كل لون، من العمالة العادية إلى الخبراء والأطباء والمهندسين والصيادلة والمدرسين وأساتذة الجامعة، من جميع بلاد العالم تقريبا، **فرأوا ثقافات ما كان لهم بها من علم، ومرت بهم - ولا زالت تمر - خبرات ما كان أحد يحلم بتواجدها بهذه الكثافة في منطقة الخليج** (*).

سابعاً :

كانت الوفورات المالية من البترول من الضخامة بحيث سمحت للخليجيين باستيراد كل أو معظم ما أنتجته وأبدعته الحضارات الأخرى، فما من سلعة أنتجتها مصانع الشرق أو الغرب إلا ولها وكلاء في المنطقة، بل إن منطقة الخليج تعد سوقاً رائجة لأحدث ما تخرجه تلك المصانع، بحيث تغيرت صورة المدن في الخليج تماما وأصبحت تضاهي المدن الأوروبية والأمريكية في كثرة محلاتها، ومعارضها ومنتجاتها، وخصوصًا مع القوة الشرائية المتوافرة فيها.

ثامناً :

تأثرت قيم كثير من الناس وعاداتهم إلى حد ملموس في دول الخليج، نتيجة للأوضاع الجديدة، فتغير شكل الأسرة من الأسرة الممتدة إلى الأسرة النووية،

(*) يمكن لمن أراد مراجعة كتاب الباحث «التربية ومشكلات المجتمع في دول الخليج العربية - مشكلة العمالة الأجنبية - معالجة إسلامية، مرجع سابق.

وتباعدت مساكنهم، واتسعت مدنهم، وانصرفت أعداد منهم عن العمل اليدوي الذي يحتاج إلى بذل الجهد والعرق بعد أن قامت عنهم العمالة الأجنبية بكل شيء . . تقريبا، حتى في مضارب البدو !!

تاسعاً :

أقبل الخليجيون على التعليم بعد أن هيأت لهم حكوماتهم فرصة واسعة، من المدارس الابتدائية حتى التعليم العالي، وصار بالمنطقة قرابة العشرين جامعة، وآلاف من المدارس الثانوية والمتوسطة والإبتدائية، ولما كانت المنطقة غير مؤهلة بالكفاءات المطلوبة لمواجهة كل ذلك فقد تعاقدت حكوماتها مع آلاف الأساتذة (*) والمدرسين من جميع أنحاء العالم العربي والإسلامي، بل ومن خارجهما كذلك!!

عاشراً :

أصبح سفر الخليجيين خلال أشهر الصيف إلى أوروبا وأمريكا وجنوب شرق آسيا جزءًا من حياتهم الجديدة، حيث تخرج ألوف مؤلفة منهم كل عام لقضاء الصيف هناك للاستمتاع بما عند الآخرين، بل وأصبح نفر غير قليل منهم يمتلكون مساكن يجدونها جاهزة للاستعمال عند وصولهم، كما أن سفر الكثير منهم للدراسة بالخارج أصبح أمرا شائعا، سواء على نفقاتهم الخاصة، أو نفقات حكوماتهم التي اهتمت بهذا الجانب بقصد تعليم وتدريب أبنائهم حتى يحلوا محل الخبرات الأجنبية.

(*) في إحدى الدراسات العلمية ثبت أنه كان بجامعات الخليج نحو ١٠,٠٠٠ (عشرة آلاف) عضو هيئة تدريس من خارج المنطقة. اقرأ للكاتب : «ترشيد جهود أعضاء هيئات التدريس في مجال البحث العلمي في دول الخليج العربية»، ضمن بحوث الندوة الفكرية الثانية لرؤساء ومديري الجامعات الخليجية، جدة، ١٤٠٥هـ، مكتب التربية العربي لدول الخليج.

حـادي عشر :

لـــم تقتصر الدراسـة في الـداخل، أو حتى في الخارج على الـذكور من أبنـاء الخليج، وإنما امتدت لتشمل العنصر النسائي كـذلك، فظهرت الفتاة الخليجية وهي مقبلة على التعليم، وأصبحت منـافسة للفتى في كثير من مجالات العمل، وبخاصة التدريس.

ثاني عشر :

ضمن خطط التنميـة الشـاملة التي تبنتهـا حكـومـات المنطقة جـاء الاهتمام بالخدمـات التي قـدمت للمواطن الخليجي، في كل مجال تقـريبا، فمع التعليم وبناء المدارس وتشييد الجامعات، افتتحت المستشفيات، واهتم بالصحة العامة للمـواطن، كما أقيمت دور الـرعايـة الاجتماعيـة لمستحقيها، وأقيمـت الأنديـة الرياضية والثقافية والمكتبات العامة، مما انعكس أثره إيجابا على ثقافة المواطن في الخليج.

ثالث عشر :

منذ ظهور الـدين الإسلامي في شبه الجزيـرة العربية، ومنذ بـزوغ نوره في مكة المكرمـة والمدينة المنورة، ثم لما انطلق المسلمـون خارج الجزيرة يحملـون مشعله، منذ ذلك التاريخ، أي منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة أصبح للثقافة الخليجية بعد آخر هائل، ربط بينهم وبين ملايين المسلمين باتساع العالم، ذلكم هو بعد العقيدة الإسـلامية، عقيـدة التوحيد، وقيم الإسـلام القائمـة على العدل والخير والمسـاواة والسلام، بل إن هـذه العقيـدة صارت هي العمـود الفقـري للثقافـة الخليجية خاصة والعربية عامة، وهـذا البعد يتمثل خصوصًا في المملكة العربية السعـوديـــة التي تضم الحرمين الشريفين، وتعتني بهما وبـزوارهما مـن الحجـاج والمعتمـرين، وبـذلك تعـد القطب الجاذب الأعظم لأكبر عـدد من المؤمنين في العالم.

يقول الجلال «لم يتيسر لمجتمع من المجتمعات من الروابط التاريخية، والعلاقات المتشابكة، مثل ما تيسَّر لمجتمع الخليج والجزيرة العربية، وبخاصة فيما بين مناطقه المتجاورة، حيث تتداخل المصالح والجنسيات، وأماكن الإقامة بشكل قوي يفوق قدرة الدولة الحديثة على عزل مجتمعها حسب الجنسية عن المجتمعات الأخرى.

لقد توحدت المنطقة ثقافيًّا ضمن عصور طويلة كان أبرزها العصر الإسلامي بالدين الواحد واللغة الواحدة، لتصبح جزءًا من دولة واحدة وتاريخ واحد، هي الدولة العربية الإسلامية، واستمرت هذه الوحدة التلقائية إلى العصر الحاضر، مع تعرضنا ـ ابتداء من دخول المستعمر للمنطقة إلى اليوم ـ لشتى محاولات التفتيت والتفرقة التي تصعد تارة وتهبط أخرى، حتى إذا تشكلت في المنطقة دول بالمعنى الحديث للدولة نجح التفتيت، وأقيمت الحواجز بالرغم من الروابط الثابتة والمستمرة بين مجتمعاتها» (١).

ويمضي عبد العزيز الجلال ليحدثنا عن المنطلقات أو المبادئ الموجهة للعمل المتكافئ في دول مجلس التعاون فيرصدها فيما يلي، مبينًا أنها جاءت نتيجة دراسات متعددة، وكانت هي الناتج المتراكم لها، هذه المبادئ أو الموجهات هي:

١ - الثقافة العربية الإسلامية هي إطار التخطيط الثقافي لدول المجلس، مع مراعاة الواقع الاجتماعي والاقتصادي والثقافي، وخصوصية التخطيط المطلوب لملاءمة هذا الواقع، وشأن دول مجلس التعاون في ذلك شأن كل البلاد العربية.

---

(١) عبد العزيز الجلال: خطة التنمية الثقافية لدول مجلس التعاون.. مشروع مقترح ومفاهيم مختلفة، التعاون، العدد السادس، شعبان ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، ص ٢٥.

٢ - أهمية البعد الثقافي في التنمية، إذ بدون الفكر الواعي تظل التنمية مجرد مظاهر مادية قابلة للاندثار.

٣ - ضرورة المشاركة الثقافية من كل المواطنين إنتاجا واستفادة.

٤ - اعتماد التنمية الثقافية على الحرية الفردية والمشاركة في اتخاذ القرار حسب المستوى المناسب لكل مواطن.

٥ - الإيمان بخصوصية الثقافة العربية وعالميتها في تدرج تكوينها، وبإنسانيتها المتمثلة في القيم الإنسانية، وبضرورة تطورها وتطويرها وانفتاحها على التيارات الفكرية والكشوف العلمية والتقنية عالميا.

٦ - تأكيد دور الثقافة في تعزيز الثقة بالذات لإخراج المنطقة من حلقة الأزمات والإحباطات المتكررة.

٧ - تأكيد دور الثقافة في تحقيق الأهداف الكبرى لدول المجلس وللأمة العربية بعامة وهي :

- الاستقلال والتحرر في مواجهة **الهيمنة والتبعية**.
- الوحدة القومية في مواجهة **التجزئة الإقليمية الضيقة**.
- الديمقراطية في مواجهة **الاستبداد**.
- العدالة الاجتماعية في مواجهة الاستغلال.
- التنمية الذاتية في مواجهة التخلف أو النمو المشوه.
- الأصالة في مواجهة التغريب والتبعية الثقافية (الخطة العربية ص ص ٢٥ - ٢٦).

٨ - تأكيد دور الثقافة في مواجهة التحديات الخاصة بدول المجلس، وأبرزها :

- تدني مستوى المشاركة في اتخاذ القرار، وفي عملية الإنتاج، وفي الثروة.
- الخلل السكاني وأثره في التماسك الاجتماعي وقيم العمل لدى المواطنين.

- الاعتماد على الخارج في متطلبات الأمن الإقليمي لها . . غذائيا . . وثقافيًا . . واقتصاديًا . . وعسكريًا .

- الإفراط في الاستهلاك، وتطرف أنماطه المظهرية التبذيرية .

- تصدع قيم العمل والإنتاج، وانحراف نسق القيم الاجتماعية من الإيجابية إلى السلبية .

٩ - قبول منظومة القيم العربية الإسلامية المحددة للهوية الثقافية العربية الإسلامية بشكلها المتكامل والمترابط، وأبرز هذه القيم هي :

في الناحية السياسية :

تكريم الإنسان، والشورى في إدارة شؤون المجتمع، والعدل ورفع الظلم، والمساواة بين البشر، بغض النظر عن العرق أو المركز الاجتماعي، والتسامح الفكري والاجتماعي، والمسؤولية الفردية عن العمل .

في الناحية الاجتماعية :

احترام الأسرة كما يتجلى ذلك في رعاية الوالدين، وصلة الأرحام، وحقوق الجيران، وقضايا الزواج، وحقوق المرأة، وإيثار المروءة والعفو على العقاب، والتكافل الاجتماعي، والرعاية الاجتماعية، وتوفير الاحتياجات الأساسية للإنسان، والعدل الاجتماعي بتحريم الربا وإنكار الاستغلال، والمسئولية الاجتماعية العامة للجماعة، كما يتمثل في وظيفة الحسبة في الإسلام .

في الناحية الاقتصادية :

احترام العمل والإنتاج، مسئولية الدولة عن أعمال النفع العام، **والثروات العامة ملك للأمة تديرها الدولة لمصلحة الجميع، الملكية الفردية مرتبطة بحسن استخدامها لصالح المالك والمجتمع، جواز تدخل الدولة في تنظيم الاقتصاد عند الضرورة لرفع الضرر عن الأغلبية .**

في الناحية الفكرية الثقافية :

تكريم العلم طلباً وحملاً ونشراً، الدعوة للإبداع والتفكير، البحث عن المعرفة والحكمة أينما وجدت، والتعلم مدى الحياة. (الخطة العربية ص ص ٣٠ - ٣٤).

ولعلنا نعرض هنا لمبادئ الخطة الشاملة للثقافة العربية، في مبادئها الفكرية على الأسس التالية، وهي أسس متلازمة متكاملة، وهي التي يجري تطبيقها على منطقة الخليج العربية، أو على دول مجلس التعاون بالتحديد، باعتبارها جزءًا من الأمة العربية، هذه الأسس هي :

١ - حق الإنسان العربي في اكتساب الثقافة، وفي حرية التعبير عنها، والتمتع بها، فالإنسان هو غاية كل تخطيط تنموي، والحرية شرط من شروط الإنسانية.

٢ - عملية التخطيط التنموي عملية شمولية، والثقافة بُعد أساسي من أبعاد التنمية الشاملة، وعلى علاقة تأثير متبادل مع نواحي التنمية الأخرى، ولم يتم تطوير البنى الاجتماعية والاقتصادية إلا بالاستناد إلى تخطيط ثقافي يحدد الأهداف المستقبلية للأمة.

٣ - إن التراث الحضاري الإسلامي هو الركن الأساس في تكوين الثقافة العربية، والنبع الأصيل فيها، عقيدة وقيماً وتشريعاً، وهو الذي يميزها من غيرها من الحضارات الإنسانية؛ فالعروبة والإسلام متلازمان ومتكاملان في الثقافة العربية.

٤ - ديموقراطية الثقافة، أي المشاركة الجماهيرية الواسعة في مجال إنتاج الثقافة والإفادة منها، باعتبار أن الثقافة تنبع من الجميع، وأنها الزاد الروحي والفكري للجميع.

٥ - قومية الثقافة، ومعناها أن الثقافة العربية واحدة موحدة، وأن التكافل القومي يزيد في قوتها وعطائها، وأن لغتها هي العربية، وأن التنوع هو أحد أبعاد الغنى والخصب فيها.

٦ - عصرية الثقافة، بمعنى تحديد الثابت والمتغير في الثقافة العربية الحالية، واستيعاب تيارات العصر، ومواكبة تحولاته، تحديثًا وانفتاحًا، مع الحفاظ على الأصالة والهوية الحضارية العربية، والقيم الروحية والفكرية للأمة.

٧ - إنسانية الثقافة، بمعنى أن للثقافة العربية خصائص ومثلا وآفاقاً قادرة على الإسهام في إقامة نظام ثقافي دولي جديد.

٨ - عالمية الثقافة، وهذا يعني متابعة تقاليد الفكر العربي في التفاعل مع الثقافات الأخرى، والمشاركة الإيجابية المتفتحة أخذاً وعطاء في تقدم الحضارة الإنسانية.

٩ - مسؤولية الدولة والمؤسسات الشعبية في التخطيط الثقافي الشامل، وفي توفير جميع الوسائل للتفتح الثقافي الحر [١].

ويحدثنا الرميحي عن سمة التوسط بين الحضارات التي تمتاز بها منطقة الخليج، والتي سبق أن تحدثنا عنها في بداية هذا الفصل، فبجانب البعدين العربي والإسلامي للثقافة الخليجية هناك بعد الاتصال مع حضارات أخرى غير عربية وغير إسلامية، يقول الرميحي: ينطبق على خليجنا العربي أنه منطقة عبر ثقافية (Trans - Cultural)، أو هو «بحيرة ثقافية». فإذا كانت الثقافة هي جوهر السمات الروحية والمادية والفكرية لجماعة ما، فلا يمكن والأمر كذلك، إلا أن نرى الواقع، وهو أن أبناء الخليج امتداد لواقع عربي إسلامي، يحملون

---

(١) الخطة الشاملة للثقافة العربية، المجلد الأول، مرجع سابق، ص ص ٣٣ - ٣٤.

كل السمات الروحية والفكرية التي حملها أجدادهم العرب المسلمون، فهم بهذا جزء من الثقافة العربية والإسلامية العميقة، وبجانب حمل أبناء الخليج لعناصر الثقافة العربية الممتدة عبر التاريخ، ولوقوعه بمحاذاة ثقافات إسلامية غير عربية أو غير إسلامية، فقد تأثر أبناء المنطقة بدرجة أو بأخرى بهذه الثقافات كالإيرانية والهندية التي يشارك أبناؤها العرب في الإسلام والعلاقات الإنسانية والاقتصادية[1].

ويفصل الكاتب السابق في قضية الصلات الثقافية بين أهل منطقة الخليج، وبين أصحاب الثقافات الأخرى «لذلك نجد أن السمات الروحية والعاطفية والفكرية (الثقافية) في الخليج ـ تقليديا ـ هي السمات العربية الإسلامية المشتركة مع سمات من الهضبة الإيرانية وشبه القارة الهندية والساحل الإفريقي. والسبب واضح في ذلك، فالعلاقات التجارية ـ علاقات السفر في البحر مع شواطئ شرق إفريقيا والشواطئ الإيرانية ـ والتي كانت في وقت آخر مستقرًا لهجرات عربية من الخليج أو العكس، وهذا التبادل المادي هو الذي أنتج هذا المزيج الثقافي[2].

ويتفق الرميحي مع الجلال في أن ثقافة مجتمع الخليج أعمق وأسبق من التقسيمات السياسية «فتقسيمات الخليج السياسية الحديثة نسبيا لم تكن عائقاً بين أبناء الخليج أنفسهم إلا في أوقات قصيرة جدًّا، أما السائد فقد كانت علاقات مفتوحة بين التجمعات السكانية المطلة على الخليج، أو في داخل الجزيرة العربية، وبخاصة هضبة نجد، هذا التفاعل بجانب النشاط

---

(١) محمد الرميحي: الثقافة في الخليج العربي، المستقبل العربي، العدد ٤٩، مارس ١٩٨٣م، ص٤٦.

(٢) المرجع السابق.

الاقتصادي المتماثل أو المشترك، كالغوص على اللؤلؤ أو التجارة مع شواطئ الهند وشرق إفريقيا وساحل إيران، أو الزراعة في بعض الواحات، عزز من الوحدة الثقافية المشتركة لأبناء الخليج [1].

ويركز الرميحي على «الثقافة في الخليج قبل ظهور النفط»، وهو يتبنى وجهة نظر مؤداها أن الثراء المادي الذي أتى به البترول لم يصنع الثقافة في الخليج، فهي هناك قبله، ولكن دوره اقتصر على تسريع التطور الاقتصادي، ومن ثم الاجتماعي والثقافي، ثم يضرب لنا أمثلة واقعية من تلك الثقافة التي كانت سائدة في الخليج قبل البترول «فإذا قلنا إن الثقافة هي نتاج المجتمع المادي والفكري، فقد كانت تجمعات الخليج تعيش على حد أدنى من الفائض الاقتصادي، من خلال مواسم صيد اللؤلؤ والزراعة المحدودة والتجارة».

في مواسم الفائض الكبير نسبيا نجد أن هذه المجتمعات وجدت لديها بعض الوقت ـ وبخاصة المستقرة في القرى الكبيرة على الساحل أو الداخل ـ لإنتاج ثقافة متميزة ومجدولة بموروثات الثقافة العربية ومجلوبات الثقافة الفارسية والهندية والإفريقية. فنجد المباني التي شيدت على طريقة تشييد المباني في السواحل الفارسية والهندية، ونجد أدوات الاستخدام الإنساني اليومي كالأسرَّة وخزانات الملابس، والتي استخدم فيها هذا المزيج من المواد الأولية المحلية والأفكار في التشكيل والتصنيع التي جلبها المهاجرون أو التجار من تلك البلاد المجاورة.

والإنتاج الفكري في تلك الفترة كان يتواءم مع الإنتاج المادي، فأغاني الغوص والسفر، وأغاني الاستعراضات الحربية، وأغاني العمل في الزراعة أو البناء كانت جزءًا من الإنتاج المادي. فالنهام (صاحب الصوت الشجي) الذي يتغنى على

---

(١) المرجع السابق، ص ص ٤٦ - ٤٧.

سطح السفينة حـاثا الغواصين على العمل لم يكـن عمله مستقلا، فهـو بجانب ذلك، أو قبله غائص أو (سيب) (*)، إذا فهو جزء من الإنتاج المادي.

وفرقة الأغاني والأهازيج في القبيلة، والتي تقوم بأداء رقصات الحرب (العرضة أو العيـالة) ليست جـزءًا متخصصـاً في القبيلة، وإنما يقـوم بها من يستطيع من الرجـال كجزء من أعمالهم العـامة، فـالثقافة التقليـدية في هـذه المجتمعات إذًا كـانت أساسـاً تدور حـول الإنتـاج المادي والحياة بأشكـالها المختلفة، وكـانت معتمدة على الموروثات الثقافية العامـة، كالتعليم الديني وقرض الشعر الفصيح أو العامي (شعر النبط). ولـم يكن هنـاك حدود تفصل هذا الإنتاج بعضه عن بعض. وكان الشعر هو الربـاط المشع من الماضي إلى الحاضر، وهو قائد الإحياء الثقافي الحديث في الخليج (١).

ولكي يبين الرميحي الصلات الثقافيـة بين الخليج وغيره من المصادر الثقافية التي سبق وأشرنـا إليهـا في بدايـة هذا الفصل نجده يؤكـد أن الإنتـاج الثقـافي في الخليـج ــ في تلك الفتـرة ــ لـم يقتصر على المـواطنين المحليـين، «بـل إن المهـاجرين أو أبنـاءهم من السـاحل الغربي لإيـران، لما كانـوا مسلمين، وكثير منهم من المذهب السني الذي يشتركون فيـه مع أبناء المجتمعات الخليجية، فإن ذلك جعلهم يُستوعبون بسرعة في هذه المجتمعـات المفتوحة، وقد لعب بعضهم دورًا إيجابيًّا في التعليم الدينـي والثقافة بشكل عام، كما لعبوا دوراً إصـلاحيًّا مع إخوانهم أبناء المنطقة (٢).

كـذلك يربط الكـاتب الخليجي بين ثقـافة الخليج، في ذلك الـوقت، وبين الثقافة في مناطق أخرى من العالم العربي الكبير، حيث كان البعد العربي حاضرًا

(*) سيب : جمعها سيوب، أي الذين ينتشلون الغائص من البحر بواسطة حبل.

(١) المرجع السابق، ص ٤٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٨.

في الخليج، «وقد تمثل في شخصيات أمثال حافظ وهبة (مصر)، والشيخ يوسف ياسين (سوريا) وآخرين من العراق والحجاز واليمن أثرَوا الحياة الثقافية في الخليج العربي وأثَّروْا فيها»(١).

ثم انتقل الرميحي بعد ذلك ليبين العلاقة بين الثقافة في منطقة الخليج العربي وبين بدايات ظهور التعليم الحديث في بدايات القرن العشرين الميلادي، وكذلك حيث بدأت تظهر بعض المجلات الثقافية في المنطقة وكذا الأندية الأدبية، حيث «لعبت الأندية والمدارس والمطبوعات - هذه الثلاثية الجديدة - دورًا طليعيا في إدخال عناصر ثقافية جديدة مستمرة من التاريخ العربي والإسلامي إلى هذه المجتمعات الخليجية الصغيرة، وقد ساعده في ذلك الفائض الاقتصادي الذي مكن بعض الشرائح الاجتماعية في هذه المجتمعات من تعليم أبنائها في الخارج (في الهند على وجه الخصوص)، وبخاصة أبناء التجار الذين وجد لهم نصيب حتى في الإدارة الإنجليزية للهند»(٢).

ثم انتقل الكاتب بعد ذلك إلى الثقافة في الخليج «بعد الحرب العالمية الثانية»، ولا ندري ما دفعه للبحث تحت هذا العنوان، خصوصًا وأنه لم يبحث في هذه الثقافة «قبل الحرب العالمية الثانية» حتى يأتي ويبحث فيها بعدها، علاوة على أن تلك الحرب لم تكن معلما من معالم انتشار الثقافة في الخليج، أو المساعدة عليها، كما أنها لم تكن من العوامل المعطلة لها أو الواقفة ضدها، فلماذا نؤرخ للثقافة . . بالحرب . . ؟؟ لا ندري . . !!

وإنما كان الأولى أن يكمل ما بدأه تحت عنوان «الثقافة في الخليج قبل ظهور النفط»، فكنا ننتظر منه ـ فعلا ـ أن يحدثنا عن الثقافة بعد ظهور النفط. ولا

---

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق، ص ص ٤٨ - ٤٩.

يختلف اثنان على وجه الأرض في أثر النفط في حياة الخليج بكل أركانها وجوانبها . . والثقافة في قلب ذلك بلا شك .

جانب آخر في هذا الموضوع هو أن الرميحي حدثنا عن الثقافة في الخليج العربي بعد الحرب العالمية الثانية ، وحدثنا عن التعليم والأندية الثقافية والمجلات التي بدأت تنتشر في بلاد الخليج ، وهذا شيء طيب بالفعل ، وخصوصًا وقد ذكر مجلات بعينها حملت الحركة الأدبية والتحديث ، مثل مجلة «البعثة» في الكويت ، ومجلة «صوت البحرين» ، وحدثنا عن اتجاهات هذه المجلات والكتّاب الذين كانوا يسهمون بالكتابة فيها ، سواء من داخل منطقة الخليج ، أو من خارجها ، وخصوصًا من مصر ومن سوريا (١).

الشيء العجيب أنه نسي ، أو تناسى ، مجلة «العربي» الكويتية التي أنشئت في الكويت عام ١٩٥٨م ، ورأسها لأول مرة علم من أعلام العلم والثقافة في العالم العربي ، هو الأستاذ الدكتور أحمد زكي ، عليه رحمة الله ، الذي ترك مصر ، حيث كان رئيساً لجامعة القاهرة ، ولكنه اختلف مع القيادة السياسية في مصر آنذاك حين بدا واضحاً أن مصر قد اتخذت قرارها السياسي بالاتجاه نحو المعسكر الشرقي . الشيوعي ، تحت مسمى الاشتراكية ، وكان أن التقطته الكويت ، وحسنًا فعلت ، فأسس لها هذه المجلة الثقافية الرائعة التي حملت ثقافة الخليج عامة ، والكويت خاصة ، إلى الشعب العربي باتساعه ، كما حملت بلدان العالم العربي ، من خلال استطلاعاتها المدققة إلى أبناء الخليج ، فقامت بدور هائل لا نعتقد أن هناك مجلة أخرى قامت به في المنطقة العربية ، وخصوصًا في الفترة التي تولاَّها فيها الأستاذ الدكتور أحمد زكي ـ رحمه الله ـ ولا ندري كيف نسيها الرميحي ، وخصوصًا وهو يتولى رئاسة تحريرها حتى هذه اللحظة . . ؟؟ !!

---

(١) المرجع السابق ، ص ٥٠ .

ويركز الرميحي بعد ذلك على نتائج التعليم الثقافية، وكذا وسائل الاتصال الجماهيري التي بدأت تنتشر في المنطقة بشكل مكثف، حيث لم تعد « المدرسة والجامعة الموزع (الشرعي) للمعرفة، على حد تعبيره، إذ أصبحت الثقافة تعني، في بعض معانيها، الاتصال الجماهيري بوسائله الأساسية المعروفة : الإذاعة المسموعة والمرئية (التلفاز)، والصحف والكتب، وما وقع في إطارها، بل أصبح هناك تنافس مكشوف تشهده المجتمعات العالمية اليوم بين النظامين (التربوي) و(الإعلامي). وأقطار الخليج ليست استثناءً »[1].

ولبيان أثر وسائل الاتصال، وبخاصة الراديو والتليفزيون اللذين ينتشران في منطقة الخليج بسبب نسبة الأمية التي تتراوح بين ٣٠ إلى ٦٠ في المائة من عدد السكان، كما يقول الرميحي، وكذلك بسبب طبيعة الحياة الحديثة التي وفرها النفط والجو الاجتماعي العام. بسبب ذلك، يقول الكاتب إن محطات الإذاعة المرئية في الخليج بدأت في التوسع في الستينات، وأصبحت أكثر انتشاراً في السبعينات والثمانينات، وهي في طريقها للتوسع الأكثر من حيث عدد ساعات البث وقنوات الإرسال، ونتيجة لظروف التشغيل فإن عدة أقطار خليجية تستطيع أن تشاهد على شاشات تلفازاتها محطات أقطار خليجية أو قريبة أخرى، مما يوسع دائرة المشاهد خارج إطار الحدود السياسية للقطر الواحد[2].

ويؤكد محمد عباس إبراهيم العلاقة الوثيقة بين الثقافة والتنمية في دول مجلس التعاون، ويرجع في بحثه [3] رجعة تاريخية يبين لنا فيها أصول التنمية الخليجية

---

(١) المرجع السابق، ص ٥٦.

(٢) المرجع السابق، ص ٥٧.

(٣) محمد عباس إبراهيم : الأبعاد الاجتماعية والثقافية للتنمية الحضرية في مجتمعات الخليج العربي، التعاون، العدد ١٤، ذو القعدة ١٤٠٩هـ - يونيو ١٩٨٩م، ص ص ١٨ - ٣٢.

في الأعمال التي كان يقوم بها أهل الخليج في بدايات القرن وما قبله، من الغوص بحثا عن اللـؤلؤ، وزراعة قليلـة محدودة، وتجارة بين مراكـز تجمع السكان، كما يلمح إلى أن «ضعف الوعي الاجتماعي، وعدم وجود تعليم قد **ساعد على انتشار بعض الخرافـات التي كـانت جزءًا من البنـاء الإنتاجي(؟؟)**. وهكذا فقـد أفرز الـواقع الاقتصـادي واقعًا اجتماعيًّـا لـم ينتـه بانتهـاء الكفـاف، وإنما لا زالت مجتمعات الخليج تحمل منه الكثير، خاضعـة في ذلك لقانون اجتماعي معروف، هو أن التغيرات في العـلاقات والقيم والمفاهيم لا تتنـاسب سرعتها مع التغيرات في الواقع الاقتصادي، فهي تبقى لفترة أكبر، وتؤثر لمدة أطول» (١).

وبعد أن يبين الكـاتب التحولات الكبيرة التي جرت في مـدخولات البترول، نتيجة تصحيح أسعاره، وكيف أن العائدات منـه عام ١٩٨٠م تعدت أكثر من خمسين ضعفًا لقيمتها من عشر سنـوات، مـوردا الجدول التـالـي لهـا :

---

(١) المرجع السابق، ص ١٩.

جـدول رقـم (٢)
العائدات البترولية خلال السنوات ١٩٧٠ - ١٩٨٠م
(بمليارات الدولارات) [١]

الدولـة	العائـدات		
	١٩٧٠م	١٩٧٥م	١٩٨٠م
الإمارات العربية المتحدة	٠,٢	٠,٦	١٩,٣
المملكة العربية السعودية	٠,٢	٢٥,٧	١٠٢,٢
العراق	٠,٥	٧,٥	٢٦,٠
قطـر	٠,١	١,٧	٥,٤
الكويت	٠,٨	٦,٤	١٨,٠

والكاتب إذ يقـدم للقارئ هذه الإحصـاءات يستدرك قـائلا إن «تلك القفزة الفلكيـة في الأرقـام والعـائدات لـم تأت عـن تطور مقـابل في قـوى الإنتـاج في الاقتصاديات البترولية وإنما هي في المقـام الأول نتيجة لتصحيح أسعار البترول، والتي قـد ينظر إليهـا بعض الاقتصاديين على أنها تمثل ريعـا، **وإنما للدقة فهي تمثل استنضاباً أو إهـلاكًا طبيعيًّا لجزء من أصل رأسمالي يتحول إلى صـورة نقدية بمجرد بيعه، ومن ثم لا يبقى الأصل الرأسمالي المنحل للريع كلـه في حالة الأرض الزراعية والعقارات**» [٢].

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٠.

(٢) المرجع السابق.

ويعقب الباحث على الوضع الاقتصادي في دول الخليج العربية، **منذ دخلتها تلك الثروات الهائلة مبينا أنها مرت بدور معكوس في التنمية، حيث أصبحت في مصاف الدول الصناعية الكبرى بالنسبة للدخول والاستهلاك، ولكنها لم تمر بالأدوار التي كان ينبغي أن تمر بها كي تصل إلى هذا المستوى**؛ «فمذ بدأت الثروة الجديدة تتحرك في مجتمع الخليج، عملت قبل كل شيء على قطع الصلات بالماضي، وخصوصًا في جوانب النشاط الاقتصادي (وهذا بعد ثقافي خطير). وخلال سنوات قليلة، ودون المرور بمرحلة انتقالية، وصل الوضع الجديد في مجتمعات الخليج العربي إلى مرحلة استهلاكية كبيرة، فحققت نوعاً من النمو الاقتصادي، دون المرور بالأدوار التقليدية المعروفة لعملية التنمية، ودون المرور أو معايشة ظواهرها الاقتصادية والاجتماعية، ودون أن تعرف البواعث والتوقعات والعقبات التي ستواجه التنمية. لذا يبدو أن صورة التنمية أخذت مفهوما معاكسا في المجتمعات الخليجية، لا سيما وأن الانقلاب الاقتصادي الذي حدث هو الذي قاد ودفع إلى قيام المؤسسات، ومع أن المجتمعات الخليجية قد وصلت سريعاً، وبدون الصناعة فيها إلى نفس مستوى حياة الدول الصناعية، وإلى بلوغ معدلات للنمو مشابهة لمعدلات النمو الاقتصادي في الدول الكبرى، وتحقيق كثير من الإنجازات في المجالين الاقتصادي والاجتماعي، إلا أنه ليس من المنطقي أن تصنف تلك المجتمعات الخليجية وتضع نفسها في مصاف الدول المتقدمة صناعيا، حيث لعب التصنيع ـ وهو ما تحتاج إليه المجتمعات الخليجية ـ دورًا أساسيًّا في عملية التنمية التي تتطلب اشتراكا فعليا من قبل قوى السكان، مع تنظيم جديد للمؤسسات التربوية والعائلية، وإنتاج سياسة جديدة في إعداد وتأهيل وتدريب قوة العمل [1].

---

(١) المرجع السابق ص ص ٢٠ - ٢١.

وينتقل الكاتب بعد ذلك للحديث عن التنمية الاقتصادية في دول الخليج، مستفيدة من عائدات البترول، ثم يصل إلى أهم بعد في قضية التنمية، ونقصد به الإنسان، وليس هناك أهم من التعليم في هذا المجال، وهو يبين لنا من خلال الأرقام والنسب الزيادة التي حدثت في ذلك المجال، بالإضافة إلى «التوسع في بناء إقامة المدارس، والتوسع في إنشاء الجامعات الخليجية والكليات التخصصية، وفيما يلي بيانات أكثر تفصيلا حول السياسة التعليمية وتطورها في بعض المجتمعات العربية الخليجية. ففي المملكة العربية السعودية بلغ عدد المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية بحلول العام الدراسي ٨٤/ ١٩٨٥م أكثر من ١٣,٩٠٠ مدرسة، ووصل عدد الطلبة والطالبات إلى ٢ مليون طالب وطالبة، منها أكثر من ٧٠٠٠ مدرسة ابتدائية للبنات، أي نحو ٣٧٪ من مجموع المدارس (*)؛ كما وصل عدد الطالبات بالمرحلة الابتدائية في العام نفسه إلى نحو ٤١٪ من إجمالي عدد الطلاب، إضافة إلى وجود مراكز ومعاهد إعداد المعلمين التابعة لوزارة المعارف، والتي يتوقع أن يتخرج فيها عام ٨٩/ ١٩٩٠م نحو ٥٨٦٠ معلماً (١).

أما عن التعليم الجامعي فقد زاد عدد طلبة وطالبات الجامعات من ٨ آلاف عام ١٩٧٠م إلى ٨٦ ألف عام ١٩٨٥م، موزعين على إحدى وستين كلية في ٧ جامعات، توفر للملتحقين بها أكثر من ٤٠٠ تخصص أكاديمي، وقد بلغ عدد الخريجين والخريجات من جامعات المملكة منذ إنشائها إلى أكثر من خمسين ألف خريج.

(*) هذه نسبة خاطئة بطبيعة الحال، لأنها - بالشكل الذي أوردها الكاتب تزيد عن ٥٠٪.

(١) المرجع السابق، ص ص ٢٧ - ٢٨.

كما أن هناك إحدى عشرة كلية جامعية تابعة للرئاسة العامة لتعليم البنات، وقد بلغ عدد المنتسبات إليها نحو ١٤ ألف طالبة ٨٤/ ١٩٨٥م، فضلا عن مدارس التعليم الفني الصناعي، وهي خمس مدارس مهنية ثانوية، بلغ عدد طلابها ١٥١١ طالباً عام ٨٢/ ١٩٨٣م، وأربعة معاهد فنية صناعية، وصل عدد الملتحقين بها ٥٨٢٨ طالباً عام ٨٢/ ١٩٨٣م (*)، إلى جانب معهدين عاليين للعلوم المالية والتجارية في الرياض وجدة.

هذا وقد قدرت الخطة الرابعة للتنمية في المملكة العربية السعودية (١٩٨٥ - ١٩٩٠م) نفقات التعليم العام في المملكة بحوالي ٨٥ بليون، ٢٣١ مليون ريال، بينما قدرت نفقات التعليم العالي بحوالي ٤٠ بليون، ٢٩٢ مليون ريال[١].

وقد سار الكاتب على هذا النمط في رصده لتطور التعليم في دول الخليج العربية الأخرى، على أساس أن التعليم رافد أساسي وعنصر قوي من عناصر الثقافة، ولكنه يبدي تخوفه من بعض الأمور فيقول إنه «من الواضح أن الاقتراب من مناقشة التعليم كوسيلة أساسية ومهمة في نقل القيم الثقافية المحلية والعالمية يحذوه بعض المحاذير التي ما زالت وستظل من المعضلات الكبرى أمام المناقشين لهذا المدخل، ولا سيما أن هناك قضايا لم تحل بعد، وخصوصًا إذا أردنا تحليل أسلوب التعليم ورؤيته من الداخل كوسيلة فعالة في التنمية، ومن تلك القضايا التعليم ودوره في التقليد والاقتباس، والتعليم بين الجهود والتجديد، والتعليم بين إعمال النقل و إعمال العقل[٢].

(*) يلاحظ القارئ بطبيعة الحال أن هذه الإحصاءات قديمة، سواء وقت كتابة الباحث لهذه الورقة ونشرها عام ١٩٨٩م، أو وقت إعداد دراستنا هذه عام ١٩٩٣م.

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق، ص ص ٢٨ - ٣٢.

ويؤكد كاتب آخر أهمية التعليم في مجتمعات الخليج وأثره في الثقافة، بل إنه يقول إن «التطور الثقافي في بعض معانيه قد يعني تطوراً في التربية والتعليم» [1]. وفي رأيه «أن التعليم وسيلة مهمة لنقل القيم الثقافية الوطنية والعالمية» [2]. ولكن الرميحي يلاحظ «أنه لا توجد كليات متخصصة في مجالات ثقافية وعلمية مهمة كالفنون الجميلة والتربية الرياضية أو التربية الموسيقية» [3]. وإن كان رأي الرميحي هذا يحتاج إلى دليل. ففي الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية توجد كلية للتربية الرياضية، كما أن جامعة الملك سعود بها قسم للفنون في كلية التربية، ولعله يكون تحت مسمى «التربية الفنية»، بالإضافة إلى أن هناك تدريسًا لهذه التربية للطالبات أيضًا.

ويدخل بنا الرميحي في دوامة معضلة يفترضها، ويحاول جمع الآراء من حولها.. لمناقشتها، يقول: «وأحسب أن المعضلة هي في كيف يساعد التعليم على تمثل المعارف والعلوم والتكنولوجيا لدى شعب أو مجتمع، دون المساس بمعتقدات ذلك الشعب وقيمه، تلك لعمري معادلة صعبة، حاول بعض المفكرين العرب الاقتراب منها، ولا يزالون. فطه حسين - في الثلث الأخير من الثلاثينات - يتحدث عن التعليم في مستهل الثقافة فيقول:

(التعليم عندنا على أي نحو قد أقمنا صروحه، ووضعنا مناهجه وبرامجه منذ القرن الماضي على النحو الأوروبي الخالص، ما في ذلك من شك ولا نزاع، نحن نكوّن أبناءنا في مدارسنا الأولية والثانوية والعالية تكوينًا أوروبيًّا لا تشوبه شائبة).

---

(١) محمد الرميحي، الخليج ليس نفطاً، مرجع سابق، ص ٢٠١.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٠٣.

(٣) المرجع السابق، ص ص ٢٠١ - ٢٠٢.

ولا شك أن طه حسين كان واعيا لوجهات النظر الأخرى، فهو يبرر دعوته في صورة، تتكرر لدى مفكرين عرب آخرين في محاولة المواءمة بين الدين والعقل، وأن خلافهما في أوروبا كان ناتجاً عن مصالح الطبقة الدينية المسيحية. . (فالإسلام لا يعرف الإكليروس ولا يميز طبقة رجال الدين)، ويذهب طه حسين للتدليل على رأيه فيقول : (إنه من السخف أن ندعو إلى عدم الأخذ بأسباب الحضارة الأوروبية، وقد دخل الراديو في الأزهر الشريف، وقام صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر يتحدث به إلى المسلمين في أقطار الأرض جميعاً).

ترى لو قدر لطه حسين اليوم أن يسمع - حتى لا نقول يشاهد - نقل مشاعر الحج في التلفاز الملون، لأضاف إلى وجهة نظره إضافات جديدة. يقول طه حسين في محاولته حل المعادلة الصعبة :

(إن حياتنا المعنوية على اختلاف مظاهرها وألوانها أوروبية، نظام الحكم أوروبي. . وحتى نظام الحكم المطلق نتلقاه من أوروبا، نظام الإدارة والتشريع نسير سيرة الأوروبيين فيه، وحتى نظام التعليم. .)[1].

ولا زال التعليم العربي ـ الكلام الآن للرميحي ـ وامتداد التعليم في الخليج بكل مراحله، وبخاصة التعليم العالي، يبحث عن حل لهذه المعادلة الصعبة. لا زال التعليم العالي العربي مشروعاً غير مكتمل، وكذلك التعليم العالي في الخليج.

السؤال : هو كيف نوائم بين الحقيقة التي مؤداها أنه بغير الثورة العقلية والصناعية التي شهدها ويشهدها الغرب - بكل اجتهاداته السياسية ـ إن صح

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٠٤

التعبير - وثورته العقلية التي زادت فكر الإنسان انضباطا، وزودته بمفاهيم وأدوات بحث واستقصاء أكثر دقة في سبيل خدمة الإنسان ؟ كيف نوائم بين **واقع التخلف والتبعية التي نعيشها** ؟ وبسؤال آخر : كيف نتمكن من استيعاب العلوم والتكنولوجيا مع مواءمتها بمعتقداتنا وقيمنا . . ؟ (١).

هذه هي إذن مشكلة بعض مفكرينا أو مثقفينا . . إنهم يضعون العلم، ولنقل العلم الحديث أمام الدين وأمام قيم المجتمع ومعتقداته، وفاتهم أن الدين الإسلامي ـ بالتحديد ـ لو أنهم فهموه الفهم الصحيح لما قالوا بذلك، بل ولما اقتربوا من هذه المقولة أصلاً، وسوف نعود لهذه النقطة حالا إن شاء الله، ولكن ومن خلال الواقع المعاصر نوجه نظرهم إلى مثل حي يعيشه العالم كله ويشعر به، وهو تجربة اليابان المعاصرة التي نقلت العلم الأوروبي وطورته تكنولوجيًّا وأذهلت الأوروبيين أنفسهم في الوقت الذي لم تتخل فيه عن قيمها، ومعتقداتها، بل ولا حتى عاداتها وتقاليدها (٢).

الدين الإسلامي.. والعلم :

أما جانب الدين الإسلامي، الذي هو دين أهل منطقة الخليج العربي، وكذا أهل المنطقة العربية فلا تعارض بينه على الإطلاق وبين العلم، ولا نتحدث ـ كما تحدث الرميحي ـ عن رجال الدين المسيحي في الغرب، **فلدينا «علماء» في الدين وليس «رجال دين»** . . .

---

(١) المرجع السابق، ص ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .

(٢) يمكن لمن أراد التزود حول هذا الموضوع أن يقرأ كتاب «التربية في اليابان المعاصرة» تأليف إدوارد د. بوشامب، ومن ترجمة الكاتب، وإصدار مكتب التربية العربي لدولة الخليج، الرياض، ١٤٠٧هـ.

نقول إن الدين الإسلامي الذي نزل وأول آياته، بل حتى أول كلماته ﴿اقرأ﴾ والذي به مئات الآيات الداعية والحاثة على طلب العلم. . . العلم بكل أنواعه وأصنافه، هذا الدين لا يمكن أن يكون فيه تعارض مع العلم أو مع العقل، ويوم فهم المسلمون دينهم حق الفهم، وطبقوه في حياتهم خرج منهم علماء عباقرة غزوا ميادين العلم المختلفة، وكانت لهم فيها فتوحات مبدعة، توجت حضارة المسلمين التي عمت العالم المعروف ـ آنذاك ـ فنهل منها، ولقد أقامت أوروبا حضارتها على علوم المسلمين التي كانت مزدهرة في جنوب أوروبا، وخصوصًا في جنوبها الغربي. . . في الأندلس[1].

يقول الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي: «لقد أمر الله رسوله ﷺ بالقراءة منذ نزل عليه جبريل ـ عليه السلام ـ بالوحي، وتدافع الصحابة وتسابقوا إلى تعلم القرآن وحفظه، وحفظ أقوال الرسول ﷺ والاقتداء بأفعاله، ثم أعقب ذلك الانفتاح على مختلف العلوم الإنسانية النافعة. وقد أسهم علماء الإسلام بجهد كبير في الحضارة العالمية، والكشف العلمي، وكانوا مشاعل ضياء و إرشاد لرواد النهضة و إرشاد النهضة الحديثة، في كل العلوم والمعارف، وهذا ما يشهد به العلماء والباحثون المنصفون الذين ينشدون الحقيقة، فقد تلقوا حضارات من سبقهم من الأمم ودرسوها، وصححوا ما فيها من الأخطاء، وطوروا الكثير منها[2].

---

(١) محمد عبد العليم مرسي: ميسرات البحث العلمي عند المسلمين، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤٠٨هـ.

(٢) من مقدمة معالي الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، مدير جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، قبل أن يصبح وزيرًا للشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد. الكتاب السابق، ص ٥.

إن العرب أصحاب نهضة علمية لم تعرفها الإنسانية من قبل، وإن هذه النهضة فاقت كثيراً ما تركه اليونان والرومان. . . إن العرب ظلوا ثمانية قرون يشعّون على العالم علماً وفنًّا وحضارة وأدباً، كما أخذوا بيد أوروبا وأخرجوها من الظلمات إلى النور، وهكذا نجد السبق لعلماء العرب ومفكريهم. (لقد كان لا بد من ظهور ابن الهيثم والبيروني وابن سينا والخوارزمي والرازي والغافقي وابن يونس والكندي وابن رشد وابن زهر. . ومن إليهم، كي يتسنى ظهور كبلر وكوبرنيق ونيوتن ودالتن وأينشتاين. . ومن إليهم.

لقد حفظ المسلمون القرآن والحديث، وكانوا هم منشأ علومهما المختلفة، وبعد أن تفقهوا في أمور الدين، وفهموا أحكامه واستنبطوا، بدأ التبحر في العلوم والمعارف الأخرى، فبدأت ترجمة الكتب اليونانية وغيرها في أواخر العصر الأموي، وترسخت في العهد العباسي، أيام الرشيد، وازدهرت وتوسعت وعمت مختلف الحضارات واللغات، وبلغت أوجها أيام المأمون. وهكذا تيسّر للعرب أن يقفوا على ما لدى الأمم السابقة من العلوم والمعارف المختلفة، ثم بدأوا في بحثها ودراستها وتصحيح معلوماتها، والإضافة إليها، والإبداع فيها. وعندها برزت أسماء المئات من العلماء المسلمين الذين كانت كتبهم ومؤلفاتهم وأبحاثهم المختلفة أساساً لكل ما ظهر من تطور وتقدم في علوم الطب والكيمياء والرياضيات والفلك وغيرها من العلوم والفنون[1].

إن هذه المعركة التي يفتعلها البعض في عالمنا العربي، بين الدين. . والعلم، معركة لا وجود لها إلا في أخيلتهم هم، فليس كالدين الإسلامي في مجال الحث على طلب العلم وعلى المنفعة فيه. يقول الشيخ يوسف القرضاوي «لم تعرف

---

(١) المرجع السابق، ص ص ٥ - ٦.

البشرية ديناً مثل الإسلام عُني بالعلم أبلغ العناية وأتمها : دعوة إليه، وترغيبا فيه، وتعظيماً لقدره، وتنويهاً بأهله، وحثا على طلبه وتعلمه وتعليمه، وبياناً لآدابه، وتوضيحاً لآثاره، وترهيباً عن القعود عنه، أو الإزورار عن أصحابه، أو المخالفة لهدايته، أو الازدراء بأهله» (١).

والذين يحاولون افتعال معركة بين دين أهل المنطقة ـ الإسلام ـ وبين العلم والفكر، والمنهج العلمي الذي يقولون بأنه أتانا من الغرب المتقدم، عليهم أن يقرأوا ما جاء به الإسلام «قرآناً وسنّة» من أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان، عليهم أن يقرأوا . . وأن يفتحوا أعينهم ويقارنوا : «إنك تقرأ الأسفار المقدسة» في العهد القديم أو الجديد، فلا تكاد تقع عينك على هذه الكلمات «العقل» أو «الفكر» أو «النظر» أو «البرهان» أو «العلم» أو «الحكمة» أو ما اشتق منها، أو تفرع عنها، أو كان له قرابة بها. فإذا قرأت القرآن وجدت فيه ـ كما يذكر «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم» ما يلي : كلمة «علم» نكرة ومعرفة ذكرت (٨٠) ثمانين مرة، أما مشتقاتها : علم يعلم ويعلمون وعلَّم ويعلِّم وعليم وعلام . . . إلخ فقد ذكرت مئات ومئات من المرات.

كلمة «عقل» لم ترد اسماً أو مصدراً في القرآن، وورد بديلا عنها «الألباب»، وتكررت ١٦ مرة (ست عشرة)، وكلمة «النهي» بمعنى العقول أيضا مرتين.

أما مشتقات «عقل» فقد تكررت في القرآن (٤٩) تسعا وأربعين مرة.

وكذلك مشتقات «فكر» (١٨) ثماني عشرة مرة.

ومشتقات «فقه» (٢١) إحدى وعشرين مرة.

---

(١) يوسف القرضاوي : الرسول والعلم، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م، ص ٣.

وكلمة «حكمة» (٢٠) عشرين مرة.

وكلمة «برهـان» مضافة وغير مضافة (٧) سبع مرات.

وهذا عـدا كلمات أخرى لها صلـة بالعلم والفكـر مثل «انظـروا» و «ينظرون» ونحوهـا. وإذا طالعت كتب الحديـث النبوي وجدت في جميع الكتـب المصنفة حسب الموضوعات والأبـواب ـ أو بتعبير ذلك العصر: الكتب ـ كتابـا حافلا موضوعه «العلم».

ففي «الجامع الصحيح» لـلإمـام محمـد بن إسماعيل البخاري نجـد - بعـد أحاديث بـدء الوحي، وكتاب الإيمـان ـ كتـاب العلم، وقـد اشتمل كما يقول الحافظ ابن حجر في «الفتح» من الأحاديث المرفوعة على مائة حديث وحديثين، منها ستة عشر حديثاً مكرراً، وفيه من الآثـار الموقوفة على الصحابة ومن بعدهم اثنان وعشرون أثرا.

وفي صحيح مسلم وبـاقي الأصـول السبعة (الموطأ وسنن الترمـذي وأبي داود والنسائي وابن ماجة) كتاب أو أبواب للعلم، تقصر أو تطول.

وحسبنا أن نذكر هنا أن كتابا مثل «الفتح الرباني» في ترتيب مسند الإمام أحمد قـد ضم في كتـاب العلم (٨١) واحـدًا وثمانين حديثًـا، وأن كتـاب «العلم» في «مجمع الزوائد» للحـافظ نور الدين الهيثمي قد بلغ ٨٤ صفحـة، في كل صفحة عدد من الأحاديث. وفي «المستدرك» للحاكم النيسابوري بلغت أحاديث العلم ٤٤ صفحـة، وأن كتـاب «الترغيب والترهيب» للحافظ المنـذري جمع في كتـاب العلم ١٤٠ حديثا. وأن كتاب العلم من «جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد» للعلامة ابن محمد بن سليمان قد ضم ١٥٤ حديثا.

ولا يخفى أن قـدراً كبيرا من الأحـاديث في كل كتـاب من هـذه مكـرر مع أحاديث الكتب الأخرى، ولكن ليس معنى هذا أن هذا العدد من الأحاديث في هذا الكتاب أو ذاك هو كل ما يتعلق بـالعلم، فالواقع أن هناك عشرات ومئات أخرى من الأحاديث لها صلة بالعلم، ولكنها وضعت في مظان أخرى من أبواب الكتاب، حيث يظهـر للحديث الواحـد أكثر من دلالة، ويستفاد منـه في أكثر من حكم (١).

ونصل إلى نقطـة الصراع التي يفترضهـا البعض بين الـديـن والعلم، والتي رسخت في أذهانهم للأسف الشديـد مما جرى في أوروبا بين العلم والكنيسة، أو بالتعبير الأصح من رجال الكنيسة في حق العلم وأهلـه، وهذا لا علاقة لـه على الإطلاق بالإسـلام. إن «العلم في نظر الإسلام ليس مقابـلا للإيمان، فضلا عن أن يكون معاديا له، كما شاعت هـذه الفكرة في أوروبا في القرون الوسطى، حين وقفت الكنيسة في تلك العصـور تؤيد الخرافة، وتحارب العلم، وتنـاصر الجمود والتقليد، وتقاوم التفكير الحر والابتكار المبـدع، وتدافع عن القوى المتسلطة من حكام وإقطاعيين، وتقف في وجه الشعوب والفئات المسحوقة».

الإسلام لـم يعرف هذا الصراع بين العلم والإيمان في تاريخه؛ لأن هذه الفكرة لا مجال لهـا في تعاليمه، لا نصا ولا روحا.

أما النصرانيـة، فتقوم أسـاسا على أن الإيمان قضية لا عـلاقة لها بـالفكر، بل هي ضـده، فهي لا تـدخل في دائرة العقل والعلـم، بل في نطـاق الـوجـدان والقلب، وليس من شرط العقائد أن تكون مقبـولة، بل يحسن بها أن تكون شيئاً فوق العقل، ولهذا كان من الشعارات المرفـوعة عند النصارى «آمن ثم اعلم» أو «اعتقد وأنت أعمى»!!

وآخر يقول على لسان القسيس «أغمض عينيك ثم اتبعني».

---

(١) المرجع السابق، ص ص ٤ - ٥.

وذلك لأن العقيدة النصرانية مؤسسة على قضايا يرفضها العقل المجرد مثل التثليث والتخليص والفداء، وما يتفرع عنها، وما يلحق بها، حتى قال بعض فلاسفة النصارى في بعض معتقداتهم «اللامعقولة» وهو القديس (أوجستين) : أومن بهذا . . . لأنه محال . . !!

وهذا على عكس الإسلام الذي يرفض في بناء العقيدة «التقليد» و«التبعية»، كقول من قالوا : ﴿**حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا**﴾ [المائدة : ١٠٤] أو ﴿**إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا**﴾ [الأحزاب : ٦٧] أو «أنا مع الناس» (*).

ويرفض أيضا الظن، حيث لا يغني في شأن العقائد إلا العلم واليقين، ولهذا أنكر على النصارى عقيدتهم في الصلب بقوله : ﴿**ما لهم به من علم إلا اتباع الظن**﴾ [النساء : ١٥٧]. وقال في شأن المشركين وآلهتهم المزعومة اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى : ﴿ **إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس** ﴾ [النجم : ٢٣].

ويأبى القرآن الكريم إلا أن تبنى العقائد على أساس البرهان القائم على النظر العميق، والتفكير الهادئ، ولأجل هذا صاح القرآن في أصحاب العقائد الباطلة : ﴿**قل هاتو برهانكم إن كنتم صادقين**﴾ [البقرة : ١١١)(١).

ولا عجب أن تكررت في القرآن هذه العبارات الموقظة للفكر من غفلته، والمحررة للإنسان من ربقة تقليده وجموده، مثل ﴿**أفلا تعقلون**﴾، ﴿**أفلا تتفكرون**﴾، ﴿**أفلا ينظرون**﴾، ﴿**أولم ينظروا**﴾، ﴿**أولم يتفكروا**﴾، ﴿**لقوم يعقلون**﴾، ﴿**لقوم يتفكرون**﴾.

(*) كما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي : «لا يكن أحدكم إمّعة يقول : أنا مع الناس إن أحسنوا أحسنت، وإن أساءوا أسأت، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس تحسنوا، وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم».

(١) المرجع السابق، ص ص ١٢ - ١٣.

وحسبك أن تقرأ هـذه الدعوة القـوية الصريحة إلى التفكير ﴿ **قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا** ﴾ [سبأ : ٤٦].

وهذا مـا دعـا الأستـاذ عبـاس العقـاد ـ رحمـه الله ـ أن يخرج كتابـا عنـوانه «التفكير فريضة إسلامية»، وهذا تعبير صحيح، فالإسلام كما فرض على الناس أن يتعبدوا، فرض عليهم أن يتفكروا. فـالعقيدة في الإسلام تقوم على العلم، لا على التسليم الأعمى، يقول القرآن الكريم : ﴿ **فاعلم أنه لا إله إلا الله** ﴾ [محمد : ١٩]، ﴿ **اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم** ﴾ [المائدة : ٩٨]، ﴿ **واعلموا أن الله يعلـم ما في أنفسكم فـاحذروه، واعلموا أن الله غفـور رحيم** ﴾ [البقرة : ٢٣٥].

لـم يخش القرآن عـواقب الـدعـوة إلى النظر والتفكـر والعلم أن تأتي بنتـائج تناقض الحقيقة العقليـة ـ وهنا مربط الفرس. ولب القضيـة فيما نناقشه بشأن قضيـة الثقـافة والعلم في الخليـج ـ فـالحق لا ينقض الحق، واليقين لا يعـارض اليقين، إنما يعارض اليقين الظن، وتنافي الحقيقية الشك أو الوهم أو الافتراض.

ومن هنا لا يمكن بحـال مناقضة صحيح المنقول لصريح المعقـول، وإذا بدا لنا في بعض الأحيان تناقض ظاهـري، فلا بد أن يكون المنقول غير صحيح، أو المعقول غير صريح. . . وهذا يقع كثيرًا : أن يظن مـا ليس من الدين دينا، وأن يحسب مـا ليس من العلم علما، **فليست كل أفهـام أهل الـدين دينا، كما أنـه ليست كل نظريات أهل العلم علمًا**

إن القرآن يعد العلم الحق داعية إلى الإيمان، ودليلا عليه [١].

---

(١) المرجع السابق، ص ص ١٣ - ١٤.

وفي هذا الكفاية وزيادة، فلا تناقض بين الدين الإسلامي ـ بالتحديد ـ وبين الصحيح من نظريات العلم، ولا تعارض على الإطلاق بين أحكام الشريعة، وما جرت به السنة النبوية المطهرة وبين قوانين العلم، والأيام دائما تدور وتدور وتثبت أن ما جاء به القرآن الكريم منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة هو الصحيح، وهو الثابت، وهو الصدق كل الصدق، وتتغير النظريات وتتصارع، وتختلف وتتناقض، والثبات في القرآن العظيم طود لا يتزحزح؛ لأنه ﴿ **لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه** ﴾ وصدق الله العظيم.

وقد يتبادر إلى الذهن، ذهن البعض على الأقل، أن الحديث عن العلم في القرآن الكريم حديث عن العلم الشرعي دون غيره، ولكن ذلك خطأ؛ فلفظ العلم جاء عاما وشاملا، فهو يضم العلم الشرعي إلى العلم الحديث بمعناه الذي نعرفه اليوم، وهو العلم المادي القائم على المشاهدة الحسية والتجربة. فلا ننكر أيضا قيمته - والحديث للقرضاوي - وحاجة الناس إليه؛ لأن العلم المادي مطلوب للإنسان ولا شك، ولكنه مطلوب طلب الوسائل.. لا طلب الغايات، وهو يعين الإنسان على الحياة، وييسر له سبلها، ويختصر له الزمان، ويطوي له المكان، فيقرب البعيد، ويلين الحديد، **ولكنه وحده لا يستطيع إسعاد البشر**، كما لا يمكنه وحده أن يضبط سير البشر، أو يقاوم أنانية الإنسان ونزعات نفسه الأمارة بالسوء.

ولهذا كان الإنسان في حاجة ماسة إلى «العلم الديني» الذي ينمي الإيمان، ويحيي الضمائر، ويغرس الفضائل، ويقي الإنسان شح نفسه، وطغيان غرائزه على عقله، وهواه على ضميره، وهذا هو الذي يعصم «العلم المادي» من الانحراف، ويحول دون استخدامه في التدمير والعدوان[1].

---

(١) المرجع السابق، ص ص ١٣ - ١٥.

ويضرب لنا العالم المسلم المثل من القرآن الكريم، ومن القصص القرآني العظيم حتى يتعظ الناس من أحداث التاريخ.

«ولقد ضرب لنا القرآن مثلا بسليمان عليه السلام، والذي آتاه الله ملكاً لم يؤته أحدا من بعده، فقد أُحضر إليه عرش بلقيس من سبأ باليمن، إلى مقره بالشام، قبل أن يرتد إليه طرفه، بفضل ذلك الذي وصفه القرآن بأنه ﴿ **عنده علم من الكتاب** ﴾ وهنا تجلى الإيمان حين أرجع سليمان الفضل إلى الله، لا إلى نفسه، فلم يركبه الغرور، أو يستبد به الطغيان ﴿ **قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه، ومن كفر فإن ربي غني كريم** ﴾ [النمل : ٤٠].

وكذلك كان موقف ذي القرنين الذي فتح الفتوح غربًا وشرقًا، وتوج حكمه بإقامة سوره العظيم، مستخدما ما يسَّرَه له علم عصره من وسائل وأدوات، فلما أتم البناء قال في تواضع المؤمنين : ﴿ **هذا رحمة من ربي، فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء، وكان وعد ربي حقًّا** ﴾ [**الكهف : ٩٨**] (١).

ويصل الشيخ ـ حفظه الله ـ إلى الثنائية التبادلية الحقة الرائعة التي ينبغي أن نعيها في حياتنا ونحن نحاول أن نقترب من العلم على أساس متين من الإيمان، يقول : «ألا إن العلم الحق هو الذي يهدي إلى الإيمان، والإيمان الحق هو الذي يفسح مجالا للعلم، فهما إذن شريكان متفاهمان، بل أخوان متعاونان.

وهذا هو العلم الذي يريده الإسلام أيا كان موضوعه، ومجال بحثه. يريده علما في ظل الإيمان، وفي خدمة مثله العليا، وإلى ذلك أشار القرآن الكريم حين

---

(١) المرجع السابق، ص ١٦.

قـال في أول آية أنـزلت ﴿ **اقرأ بـاسم ربك الذي خلق** ﴾ والقراءة عنـوان العلم ومفتاحه ومصباحه، فإذا كان أول أمر إلهي نزل به القرآن : «القراءة»، كان ذلك أوضح دليل على مكانة العلم في الإسلام.

ولكن القـرآن لـــم يطلب «مطلق قـراءة»، وإنما طلب قـراءة مقيـدة بقيـد خاص، وهـو أن تكون . . . «بـاسم الله». وإذا كانـت القراءة باسـم الله، فقد وجهت إلى الحق والخير والهداية؛ لأن الله تعالى هو مصدر هذا كلـه.

ولا غرو أن نشأ العلم في الإسلام في أحضـان الدين، وأن نشأت المدارس في صحون المساجد، وبدأت الجامعات الإسـلامية العريقة تحت سقوف الجوامع، بل سمي كل منها جامعا : جامع الأزهر، جامع القرويين، جامع الزيتونة . . . وهكذا.

وكانت هـذه الجوامع أو الجامعات تدرس علـوم الدين، وعلوم الدنيـا معا، وكان كثير من العلماء التجـريبيين في الوقت نفسـه علماء دين، مثل القاضي ابن رشد الحفيـد مؤلف «بـداية المجتهـد ونهاية المقتصـد» في الفقه المقـارن، ومؤلف «الكليات» في الطب. ومثل الخوارزمي الذي ألف كتابه الفريد، الذي أسس به علم الجبر، ليحل به مشكلات في الوصايا والمواريث من أبواب الفقه [1].

واقـع الخليـج :

ونترك التنظير، وننـزل إلى أرض الـواقع لنسأل إخـواننا أصحـاب الإشكـاليـة الثقافية التي حشروا أنفسهم فيهـا، وهي هل يمكن الدخول إلى العلم الحديث مع المحافظة على العقيدة والقيم ؟ ألم تدخل المملكـة العربية السعودية إلى مجال العلم الحديث، وهي الدولـة التي تطبق الشريعة أكثر من أية دولـة أخرى، ألا

---

(١) المرجع السابق، ص ص ١٦ - ١٧.

توجد بها جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في المدينة نفسها . . الرياض التي توجد بها مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية ؟ ألا تدرس علوم التاريخ والجغرافيا والتربية وعلم النفس والاجتماع والخدمة الاجتماعية وعلوم المكتبات في جامعة الإمام نفسها التي اشتهرت بكلياتها الدينية : الشريعة وأصول الدين والمعهد العالي للقضاء ؟ ألا توجد كليات الطب والصيدلة والهندسة في جامعة الملك سعود مع كلية التربية حيث يوجد بها قسم عريق للثقافة الإسلامية ؟

وأمثلة كثيرة يمكن للإنسان أن يضربها للتزاوج العصري الأصيل بين الدين والعلم، من جامعة الملك فهد للبترول والمعادن، حيث علوم العصر كأحدث ما تكون، وحيث التجارب كأدق ما تكون، وحيث تطبيقات العلم كما يحب كل مسلم غيور أن توجد في كل جامعاتنا، مع «العلم الديني» في جامعتي أم القرى بمكة المكرمة، والجامعة الإسلامية في المدينة المنورة.

ما هي الإشكالية إذن في ثقافة الخليج التي تخترع أو تُدَّعى بين العلم والدين، بين الأصالة والمعاصرة، بين القديم والحديث ؟ إن كل ذلك يسير بشكل طبيعي، ودون عوائق تذكر، وإذا كانت هناك عوائق من نوع ما، ذات يوم، فلقد تغلب عليها في الخليج، واندفعت مجتمعاته نحو الأخذ بالعلم الحديث من أوسع أبوابه . . وهي الجامعات، وبقي أن تحافظ تلك المجتمعات على قيمها وتقاليدها، ولا يعميها بريق الحديث عن أصالة ما عندها، بل وعن أهميته، حتى يعصمها من أن تنجرف في تيار «التحديث» دون وعي، وتكون النتيجة هي مما لا تحمد عقباه. ولكن يطمئن النفوس أن هناك رجالاً من أهل المنطقة يعون المخاطر، ومؤسسات تحافظ على الدين، فتحفظ للأمة اتزانها بعون من الله، وفضل منه جل وعلا.